31.12.2015

غسان كنفاني

أم سعد



رواية

غسان كنفاني

أم سعد

منشورات الرمال

مؤسسة غسان كنفاني الثقافية

نشرت مؤسسة الأبحاث العربية هذه الرواية
في طبعتها الأولى سنة 1969

طبعة سنة 2013

دار منشورات الرمال
قبرص
www.rimalbooks.com

ISBN 978-9963-610-93-8

صورة غسان كنفاني تصوير آني كنفاني
تصميم الغلاف ميدا فريجي مقدسي
الخطاط: شوقي يوسف
الغلاف: لوحة لغسان كنفاني
طبع في الهند Replika Press Pvt Ltd



يُعتبر غسان كنفاني أحد أشهر الكتّاب والصحافيين العرب في عصرنا. فقد كانت أعماله الأدبية من روايات وقصص قصيرة متجذرة في عمق الثقافة العربية والفلسطينية، ومصدر وحيٍ لجيلٍ كامل في حياته وبعد استشهاده بالكلمة والفعل.

ولد في عكا، شمال فلسطين، في التاسع من نيسان/أبريل ١٩٣٦، وعاش في يافا حتى أيار/مايو ١٩٤٨ حين أجبر، بسبب الحرب التي أسفرت عن إنشاء إسرائيل، على مغادرة وطنه الأم واللجوء مع عائلته في بادئ الأمر إلى لبنان، ثم إلى سوريا. عاش وعمل في دمشق ثم في الكويت، وبعد ذلك في بيروت منذ سنة ١٩٦٠. وفي الثامن من تموز/يوليو ١٩٧٢ استشهد في بيروت مع ابنة أخته لميس في انفجار سيارة مفخخة على أيدي عملاء إسرائيليين.

أصدر غسان حتى تاريخ وفاته المبكر ثمانية عشر كتاباً، وكتب مئات المقالات في الثقافة والسياسة وكفاح الشعب الفلسطيني. في أعقاب اغتياله تمّ إعادة نشر جميع مؤلفاته بالعربية، في طبعات عديدة. كذلك جمعت رواياته وقصصه القصيرة ومسرحياته ومقالاته ونشرت في مجلدات، وترجم العديد من أعماله الأدبية إلى عشرين لغة. كما دخل بعض أعماله في مناهج المدارس والجامعات، وتمّ إخراج بعضها أعمالاً مسرحية وبرامج إذاعية عربية وأجنبية عدة، واثنتان من رواياته تحولتا إلى فيلمين سينمائيين. وما زالت أعماله التي كتبها في الفترة ١٩٥٦-١٩٧٢ تحظى اليوم بأهمية متزايدة.

الإهداء

إلى أم سعد، الشعب المدرسة

غ. ك.

مدخل

(أم سعد امرأة حقيقية، أعرفها جيداً، وما زلت أراها دائماً، وأحادثها، وأتعلم منها، وتربطني بها قرابة ما. ومع ذلك فلم يكن هذا بالضبط، ما جعلها مدرسة يومية، فالقرابة التي تربطني بها واهية اذا ما هي قيست بالقرابة التي تربطها بتلك الطبقة الباسلة، المسحوقة والفقيرة والمرمية في مخيمات البؤس، والتي عشت فيها ومعها، ولست أدري كم عشت لها.

«إننا نتعلم من الجماهير، ونعلمها»، ومع ذلك فإنه يبدو لي يقيناً أننا لم نتخرج بعد من مدارس الجماهير، المعلم الحقيقي الدائم، هو الذي في صفاء رؤياه تكون الثورة جزءاً لا ينفصم عن الخبز والماء وأكف الكدح ونبض القلب.

لقد علمتني أم سعد كثيراً، وأكاد أقول إن كل حرف جاء في السطور التالية إنما هو مقتنص من بين شفتيها اللتين ظلتا فلسطينيتين رغم كل شيء، ومن كفيها الصلبتين اللتين ظلتا، رغم كل شيء، تنتظران السلاح عشرين سنة.

ومع ذلك فأم سعد ليست امرأة واحدة، ولولا أنها ظلت جسداً وعقلاً وكدحاً، في قلب الجماهير وفي محور همومها، وجزءاً لا ينسلخ عن يومياتها، لما كان بوسعها أن تكون ما هي، ولذلك فقد كان صوتها دائماً بالنسبة لي هو صوت تلك الطبقة الفلسطينية التي دفعت غالياً ثمن الهزيمة.

والتي تقف الآن تحت سقف البؤس الواطئ في الصف العالي من المعركة، وتدفع، وتظل تدفع أكثر من الجميع.)

غسان كنفاني

أم سعد
والحرب التي انتهت

كان ذلك الصباح تعيساً. وبدت الشمس المتوهجة وراء النافذة وكأنها مجرد قرص من النار يلتهب تحت قبة من الفراغ المروع، كنا نطوي أنفسنا على بعضها كما تُطوى الرايات، وفجأة رأيتها قادمة من رأس الطريق المحاط بأشجار الزيتون، وبدت أمام تلك الخلفية من الفراغ والصمت والأسى مثل شيء ينبثق من رحم الأرض. قمت ووقفت أمام النافذة المشرعة وأخذت أنظر إليها تمشي بقامتها العالية كرمح يحمله قدر خفي.

وجاءت زوجتي ووقفت إلى جانبي ونظرت إلى الطريق، ثم قالت لي:

- ها هي أم سعد، وقد جاءت.

مثل دقات الساعة جاءت. هذه المرأة، تجيء دائماً، تصعد من قلب الأرض وكأنها ترتقي سلماً لا نهاية له، وقالت زوجتي فيما نحن نحصي خطواتها:

- تُرى.. كيف تشعر أم سعد الآن؟

وقلت لنفسي لست أدري. وكنت أنتظرها لأتعلّم شيئاً، فوراء ظهورنا تراكمت دروع الجنود المحطمة فوق الرمل المهجور، وشقت طوابير النازحين مسافات جديدة. كنت أسمع هدير الحرب من الراديو، ومنه سمعت صمت المقاتلين، وهو يتكئ على الطاولة ورائي ينوح مثل أرملة، ويطلي بصوته المهزوم كل أشياء الغرفة بالتفاهة: المكتبة، والمقعد، والزوجة، والأطفال، وصحن الطعام، وأحلام المستقبل، ويجعل الحبر بلا لون. وقالت زوجتي:

- لقد اختفت أم سعد منذ تفجر القتال. وها هي تعود وكأنما على إيقاع الهزيمة.. لقد قاتلوا من أجلها وحين خسروا خسرت هي مرتين، تراها ماذا ستقول الآن؟ لماذا تجيء وكأنها تريد أن تبصق في وجوهنا؟ كيف تراها رأت المخيم حين غادرته هذا الصباح؟

وظلت الأسئلة معلقة في الهواء، كما لو أنها الغبار الذي لا يرسو، وكدت أراها، مسننة ومدببة وذات رؤوس كالشفرات تسبح في تلك الحزمة الفضية التي تصبها أشعة الشمس في قلب الغرفة، فيما كانت أم سعد ترقى الطريق نحونا، تحمل الصرّة الصغيرة التي تحتفظ بها دائماً، وتسير عالية كما لو أنها عَلَم ما، تحمله زنود لا تُرى.

ودخلت أم سعد، ففاحت في الغرفة رائحة الريف، وبدت لي

كما كانت قبل عشرة أيام. عشرة أيام فقط! يا إلهي كم تتغير الأمور وكم تتهدم الصروح في عشرة أيام! وضعت صرتها الفقيرة في الركن، وسحبت من فتحتها عرقاً بدا يابساً، ورمته نحوي:

- قطعته من دالية صادفتني في الطريق، سأزرعه لك على الباب، وفي أعوام قليلة تأكل عنباً.

ودوّرت العرق الذي بدا خشبة بنية داكنة لا تنفع شيئاً بين أصابعي، وقلت لها:

- أهذا وقته يا أم سعد؟

وأخذت تعيد ربط شالها الأبيض حول رأسها، كما تفعل دائماً حين تكون منصرفة إلى التفكير بشيء آخر، وقالت:

- قد لا تعرف شيئاً عن الدالية، ولكنها شجرة معطاءة لا تحتاج إلى كثير من الماء. الماء الكثير يفسدها.. تقول كيف؟ أنا أقول لك. إنها تأخذ ماءها من رطوبة التراب ورطوبة الهواء، ثم تعطي دون حساب.

قلت:

- قضيب ناشف.

- إنه يبدو كذلك، ولكنه دالية.

- هذا ليس مهماً..

قالت فجأة:

- انتهى الأمر، أليس كذلك؟

- بلى.

- أنت تقول ذلك.

واستدارت، ومضت إلى الشرفة فلحقت بها بخطوات بطيئة، وسألتها:

- كيف كان المخيم اليوم؟

وفجأة نظرت إليّ، وبدت لي القصة كلها على جبينها الذي له لون التراب، ثم فرشت كفيّها أمامي:

- بدأت الحرب بالراديو، وانتهت بالراديو، وحين انتهت قمت لأكسره، ولكن أبا سعد سحبه من تحت يدي. آه يا ابن العم! آه!

واتكأت على حاجز الشرفة، وأخذت تنظر إلى حقول الزيتون المطلة على مدارج التلة، ثم سحبت يدها فوقها جميعها وقالت:

- والزيتون لا يحتاج إلى ماء أيضاً، إنه يمتص ماءه عميقاً في بطن الأرض، من رطوبة التراب.

ثم نظرت اليّ:

- لقد ذهب سعد ولكنهم أمسكوه، ومنذ يومين كنت أعتقد أنه يحارب. هذا الصباح عرفت أنه كان محبوساً، يا للعار. كنت أقول

لنفسي، لو مات.. وصمتت فجأة.

- كيف عرفت أنه محبوس؟

- صباح الاثنين سمعنا الراديو، فحمل أغراضه وجمع رفاقه وطلعوا من المخيم كالعفاريت. أقول لك أنني لحقت به. أخذت طريقاً مختصراً وقابلته قرب مدخل المخيم وأسمعته كيف أزغرط. وقد ظل يضحك حتى اختفى عن أنظاري.. ولكن يا حسرة! لم يصل. حبسوه.

- والآن؟

- ذهب المختار ليرى. مرّ عليّ في الصباح وقال لي: لا تخافي يا أم سعد. سأعود لك به. الأهبل، يعتقد أن هذا ما أريده.. الأهبل، يعتقد أن ذلك ما يريده سعد. أتعرف؟ سيعود المختار في الليل ويقول لي: ابنك ولد شقي، أخرجته من الحبس فهرب مني نحو الجبل وقطع الحدود..

- يقطع الحدود إلى أين؟

وبدا لي أنها أشارت بذراعها إلى جهة ما، ثم ارتدت الذراع كأنما من تلقائها، وأخذت تدور حول نفسها، تشير إلى كل شيء، وأخذتُ أحصي الأشياء التي أشارت إليها الذراع السمراء: المكتبة والمقعد والأطفال والزوجة وصحن الطعام وأنا.

ولأول وهلة لم أصدق، وبدت لي حركة ذراعها وكأنها رمز لشيء شديد التعقيد، لا يمكن أن يرقى إليه عقلها البسيط وعدت أسأل:

- يقطع الحدود إلى أين؟

وشهدت في ركن شفتيها تلك الابتسامة التي لم أرها قط على وجهها، والتي صار يتعين علي منذ الآن أن أراها هناك دائماً، منذ هذه اللحظة، تشبه رمحاً مسدداً، وهذه المرة لم تحرك ذراعها، وقالت:

- كأنك لا تعرف! كأنك لا تعرف! نعم .. يقطع الحدود إلى أين؟ هكذا تسأل، هكذا يسألون.. لماذا لم تتناول فطورك؟

وفاجأني السؤال، فالتفت إلى حيث كان الطعام ينتظر منذ ساعتين شهية محكمة الرتاج، كأنها باب أغلق إلى الأبد ولحم مصراعيه صدأ الهزيمة المرّة التي لها طعم الذل .. وعادت أم سعد تقرع ذلك الباب مرة أخرى:

- لماذا لم تتناول فطورك؟ أنا لم أتناول فطوري أيضاً، أنتظر شيئاً ما يفتح شهيتي ليس للأكل فحسب، ولكن للحياة أيضاً .. أتصدق؟ ليس ثمة من يستطيع أن يفعل ذلك إلاّ سعد.

وصمتت قليلاً، ثم همست كأنما لنفسها:

- أتعرف؟ إذا عاد سعد إلى البيت الليلة، إذا عاد، فلن أستطيع تناول الطعام .. أتدرك الآن لماذا يتوجب عليه أن يقطع الحدود؟

وعاد ذراعها مرة أخرى يشير إلى تلك الحدود، ويدور فوق المكتبة والمقعد والأطفال والزوجة وصحن الطعام وأنا، ثم ظل مصوباً نحوي، مشدوداً كأنه جسر أو حاجز، وسألت:

- وأنت؟ ماذا ستفعل يا ابن العم؟ عشرون سنة مضت وأمس تذكرتك وأنا أسمع في الليل أن الحرب انتهت، وقلت لنفسي، يجب أن أزوره، ولو كان سعد هنا لقال لي: هذه المرة دوره هو أن يزورنا .. فهل ستفعل؟

ولم تنتظر جوابي. عادت إلى الغرفة فرفعت عرق الدالية عن الطاولة وأخذت تتأمله كأنها تراه تلك اللحظة للمرة الأولى.

وخطت ببطء نحو الباب الآخر وهي تقول:

- سأزرعه، وسترى كيف يعطي عنباً، هل قلت لك إنه لا يحتاج إلى ماء، وإنه يعتصر حبات التراب في عمق الأرض ويشربها؟

وبدت لي وهي تمشي عبر الممر شيئاً شامخاً عالياً، كما كانت تبدو دائماً، ولست أدري لماذا أخذت أفكر بالمختار الذي ذهب يسعى لإطلاق ابنها من الحبس، فسألتها:

- هل قال لك المختار كيف سيفكك سعد من الحبس؟

ومن آخر الممر التفتت إلي، وكانت تبدو أمام الباب المفتوح عملاقاً يدخل مع ضوء الشمس، لم أكن لأستطيع أن أرى وجهها بوضوح، ولكنني سمعتها تقول:

- أما زلت تفكر بالمختار؟

◆ ◆ ◆

- ألم أقل لك؟

كان ذلك أول ما قالته أم سعد صباح اليوم التالي، وقد جاءت مبكرة كالعادة، وكنت قد نمت متأخراً، ولكنها لم تنتظر، ففاجأتني في الفراش، ومضت تقول:

- ألم أقل لك أن لا تفكر بالمختار؟ أتعرف ماذا حدث؟

ذهب وأراد أن يأخذ من كل واحد منهم توقيعاً على ورقة يتعهدون فيها أن يكونوا أوادم، ولكنهم رفضوا وطردوه.

- من هم؟

- سعد ورفاقه. قال لي المختار إنهم ضحكوا عليه، وإن سعد سأله: شو يعني أوادم؟ قال المختار إنهم كانوا محشورين في زنزانة، وإنهم أخذوا يضحكون جميعاً، وإن شخصاً لا يعرفه كان بينهم قال

له: أوادم يعني قاعدين عاقلين؟ فقال رجل ثالث: يعني ناكل كف ونقول شكراً؟ وإن سعد قام وقال له: يا حبيبي، أوادم يعني بنحارب، هيك يعني هيك..

كانت تتوهج بسعادة غامضة، وجلست على الكرسي وقالت:

- يخزي العين عليهم! كان المختار يحكي لي القصة وكنت أضحك بعبي، وقلت له أخيراً: مليح اللي ما ضربوك، إحمد ربك عالسلامة! فزعل.

- ورفضوا توقيع التعهد؟

- طبعاً رفضوا قالوا للمختار «راحت عليك»، وقد زعل، خصوصاً حين سألهم المختار إن كانوا يريدون شيئاً من المخيم، فقال له سعد: «سلم عالأهل يا ابني.» فزعل لأنه أكبر من سعد، من جيل أبيه، وقال لي إن سعد لم يحترمه، وإنه قال له «يا ابني»، كأنه ولد..

- وماذا قلت أنتِ للمختار؟

- قلت له إن سعد قلبه أبيض، وإنه حين قال له يا ابني فهو لم يقصد إهانته، كل ما قصده أن الدور الآن دوره..

- يا أم سعد! أردتِ تكحيلها فعميتِها.

- أنا؟ أنا قصدت ذلك قصداً..

- والآن ماذا سيفعل سعد؟ ألم يكن خروجه من السجن أفضل؟

وقفت، ونظرت إلي واضعة تلك الابتسامة على ركن شفتيها، وقالت:

- طيب! أنت غير محبوس، فماذا تفعل؟

وكانت الصحف ملقاة على الأرض، والراديو الذي تركته في الليل مفتوحاً أخذ يتلو نشرة الأخبار، وكانت أم سعد تنظر إليّ تارة وإليه تارة أخرى، وبدت لي نظراتها، وهي تنتقل مني إليه، إنما تمد بيننا قضبان حديد تعجز كفاي عن هزها، ثم قالت:

- أتحسب أننا لا نعيش في الحبس؟ ماذا نفعل نحن في المخيم غير التمشي داخل ذلك الحبس العجيب؟ الحبوس أنواع يا ابن العم! أنواع! المخيم حبس، وبيتك حبس، والجريدة حبس، والراديو حبس، والباص والشارع وعيون الناس.. أعمارنا حبس، والعشرون سنة الماضية حبس، والمختار حبس.. تتكلم أنت عن الحبوس؟ طول عمرك محبوس.. أنت توهم نفسك يا ابن العم بأن قضبان الحبس الذي تعيش فيه مزهريات؟ حبس، حبس، حبس. أنت نفسك حبس .. فلماذا تعتقدون أن سعد هو المحبوس؟ محبوس لأنه لم يوقع ورقة تقول إنه آدمي؟ من منكم آدمي؟ كلكم وقّعتم هذه الأوراق بطريقة أو بأخرى ومع ذلك فأنتم محبوسون...

قمتُ، وكانت ترتجف، لا شك أنها كانت المرة الأولى التي رأيتها

فيها مجتاحة بمثل ذلك الغضب، وقلت لها:

- هدئي أعصابك يا أم سعد.. أنا لم أقصد شيئاً.

وبهدوء قالت:

- كل واحد يقول الآن « أنا لم أقصد شيئاً».. فلماذا يحدث كل الذي يحدث؟ لماذا؟ لماذا لا تتركون الطريق للذين يقصدون؟ لماذا أنت لا تقصد شيئاً؟

ثم اقتربت مني.

- اسمع.. أنا أعرف أن سعد سيخرج من الحبس. الحبس كله! أتفهم؟

خيمة عن خيمة تفرق

أم سعد، المرأة التي عاشت مع أَهلي في الغابسية سنوات لا يحصيها العد، والتي عاشت، بعد، في مخيمات التمزق سنوات لا قبل لأحد بحملها على كتفيه، ما تزال تأتي لدارنا كل يوم ثلاثاء: تنظر إلى الأشياء شاعرة حتى أعماقها بحصتها فيها، تنظر إليّ كما لابنها، تفتح أمام أذني قصة تعاستها وقصة فرحها وقصة تعبها، ولكنها أبداً لا تشكو.

إنها سيدة في الأربعين، كما يبدو لي، قوية كما لا يستطيع الصخر، صبورة كما لا يطيق الصبر، تقطع أيام الأسبوع جيئة وذهاباً، تعيش عمرها عشر مرات في التعب والعمل كي تنتزع لقمتها النظيفة، ولقم أولادها.

أعرفها منذ سنوات. تشكل في مسيرة أيامي شيئاً لا غنى عنه، حين تدق باب البيت وتضع أشياءها الفقيرة في المدخل تفوح في رأسي رائحة المخيمات بتعاستها وصمودها العريق، وببؤسها

وآمالها، ترتد إلى لساني غصة المرارة التي علكتها حتى الدوار سنة وراء سنة.

آخر ثلاثاء جاءت كعادتها، وضعت أشياءها الفقيرة، واستدارت نحوي:

- يا ابن عمي، أريد أن أقول لك شيئاً. لقد ذهب سعد.

- إلى أين؟

- إليهم؟

- من؟

- إلى الفدائيين.

وسقط صمت متحفز فيما بيننا، وفجأة رأيتها جالسة هناك، عجوزاً قوية، اهترأ عمرها في الكدح الشقي. كانت كفاها مطويتين على حضنها، ورأيتهما هناك جافتين كقطعتي حطب، مشققتين كجذع هرم، وعبر الأخاديد التي حفرتها فيهما سنون لا تحصى من العمل الصعب، رأيت رحلتها الشقية مع سعد، مذ كان طفلاً إلى ان شب رجلاً، تعهدته هاتان الكفان الصلبتان مثلما تتعهد الأرض ساق العشبة الطرية، والآن انفتحتا فجأة فطار من بينهما العصفور الذي كان هناك عشرين سنة.

- لقد التحق بالفدائيين.

وكنت ما أزال أنظر إلى كفيها، منكفئتين هناك كشيئين مصابين بالخيبة، تصيحان من أعماقهما، تطاردان المهاجر إلى الخطر والمجهول.. لماذا، يا إلهي، يتعين على الأمهات أن يفقدن أبناءهن؟ لأول مرة أرى ذلك الشيء الذي يصدع القلب على مرمى كلمة واحدة مني، كأننا على مسرح إغريقي نعيش مشهداً من ذلك الحزن الذي لا يداوى.

قلت لها، محاولاً أن أضيّعها وأضيّع نفسي:

- ماذا قال لك؟

- لم يقل شيئاً. فقط ذهب، وقال لي رفيقه في الصباح إنه ذهب اليهم.

- ألم يذكر لك قبلاً أنه سيذهب؟

- بلى. قال لي مرتين أو ثلاث مرات أنه ينوي الالتحاق بهم.

- ولم تصدقي آنذاك؟

- بلى. صدقت. أنا أعرف سعد، وقد عرفت أنه سيذهب.

- فلماذا، إذن، فوجئت؟

- أنا؟ لم أفاجأ. إنما أعلمك بالأمر. قلت لنفسي: قد تكون ترغب في معرفة أخبار سعد.

- ولست حزينة أو غاضبة؟

وتحركت كفاها المطويتان في حضنها، ورأيتهما جميلتين قويتين قادرتين دائماً على أن تصنعا شيئاً، وشككت إن كانتا حقاً تنوحان، وقالت:

- لا. قلت لجارتي هذا الصباح: أود لو عندي مثله عشرة. أنا متعبة يا ابن عمي. اهترأ عمري في ذلك المخيم. كل مساء أقول يا رب! وكل صباح أقول يا رب!. وها قد مرت عشرون سنة، وإذا لم يذهب سعد، فمن سيذهب؟

وقامت، ففاض في الغرفة مناخ من البساطة. بدت الأشياء أكثر ألفة، ورأيت فيها بيوت الغابسية مرة أخرى، ولكنني لحقت بها إلى المطبخ، وهناك ضحكت وهي تنظر إليّ، وأخبرتني:

- قلت للمرأة التي جلست إلى جانبي في الباص أن ولدي أضحى مقاتلاً (آنذاك بدا صوتها، بلا ريب، مختلفاً، ولذلك تذكرت الآن) قلت لها أنني أحبه وسأشتاق له، ولكنه جاء ابن أمه.. أتعتقد انهم سيعطونه رشاشاً؟

- أنهم يعطون رجالهم رشاشات دائماً.

- والطعام؟

- يأكلون كفاية، وكذلك يعطونهم السجاير.

- إن سعد لا يدخن، ولكنني متأكدة أنه سيتعلم ذلك هناك. يا

نور عيني أمه! أود لو كان قريباً فأحمل له كل يوم طعامه من صنع يدي.

- يأكل مثل رفاقه.

- اسم الله عليهم جميعاً.

وصمتت لحظة، ثم دارت وواجهتني:

- أتعتقد أنه سينبسط لو ذهبت فزرته؟ أستطيع أن أوفّر أجرة الطريق، وأذهب يومين إلى هناك؟

وتذكرت شيئاً فأكملت:

- أتدري؟ إن الأطفال ذل! لو لم يكن لدي هذان الطفلان للحقت به. لسكنت معه هناك. خيام؟ خيمة عن خيمة تفرق! لعشت معهم، طبخت لهم طعامهم. خدمتهم بعيني ولكن الأطفال ذل.

قلت لها:

- لا ضرورة لأن تزوريه هناك، دعيه يتصرف وحده. إن الرجل الذي يلتحق بالفدائيين لا يحتاج، بعد، إلى رعاية أمه.

ونشفت كفيها بمريولها، وعميقاً في عينيها رأيت شيئاً يشبه الخيبة: تلك اللحظة المروعة التي تشعر فيها أُمٌ ما أنه صار بالوسع الاستغناء عنها، أنها أُطرحت في جهة ما كشيء استهلكه الاستعمال.

ودنت مني تقول:

- أتعتقد ذلك حقاً؟ أتعتقد أنه من غير المفيد أن أذهب إلى رئيسه هناك وأوصيه به؟

وتحيرت قليلاً، مستشعرة التمزق ينهكها، ثم سألت:

-.. أم تراكَ تستطيع أنت أن توصي رئيسه به؟ تقول له: دير بالك على سعد؛ الله يخليلك ولادك.

وقلت لها:

- كيف؟ إن أحداً لا يستطيع أن يوصي بالفدائي.

- لماذا؟

- لأنكِ أنت تقصدين أن يتدبر رئيسه الأمر بحيث لا يعرضه للخطر، أما سعد نفسه، ورفاقه، فيعتقدون أن أحسن توصية بهم هي أن يُرسَلوا على الفور إلى الحرب.

ومرة أخرى جلست هناك، ولكنها بدت قوية أكثر مما رأيتها أبداً، وراقبت في عينيها وكفيها الخشنتين حيرة الأم وتمزقها، وأخيراً قرّ رأيها:

- أقول لك، لتكن توصيتك به إلى رئيسه أن لا يغضبه. قل له: أم سعد تستحلفك بأمك أن تحقق لسعد ما يريد. إنه شاب طيب، وحين يريد شيئاً لا يتحقق يصاب بحزن كبير. قل له، دخيلك، أن يحقق له ما يريد.. يريد أن يذهب إلى الحرب؟ لماذا لا يرسله؟

المطر والرجل والوحل

كان صباح الثلاثاء ماطراً، ودخلت أم سعد وهي تقطر ماء. كان شعرها مبتلاً، وينقط على وجهها، فيبدو وكأنه تراب مسقي. تناولت معطفها، فيما وضعت المظلة الكالحة في الزاوية كما يوضع السيف المتعب، وقالت:

- هذا ليس مطراً، السماء، يا ابن عمي، تكب سطولاً.

وابتسمت، ولكنني رأيت شريطاً من الوحل الأحمر يطوق طرف ردائها وهي تستدير. قلت لها:

- ماذا يا أم سعد؟ هل وقعت؟

وبسرعة التفتت الي:

- وقعت؟ أم سعد لا تقع. لماذا؟

- ثمة وحل على تنورتك.

حكّت الوحل بأصابعها الخشنة، ثم تركته لشأنه حين أحست أنه ما زال طرياً، وقالت:

- طاف المخيم في الليل.. الله يقطع هالعيشة.

واهتز الجبل أمامي، ثمة دموع عميقة أخذت تشق طريقها إلى فوق، لقد رأيت أناساً كثيرين يبكون. رأيت دموعاً في عيون لا حصر لها، دموع الخيبة واليأس والسقوط والحزن والمأساة والتصدع. رأيت دموع الوجد والتوسل، الرفض الكسيح والغضب المهيض الجناح. دموع الندم والتعب، الاشتياق والجوع والحب، ولكنها أبداً، أبداً، لم تكن مثل دموع أم سعد. لقد جاءت مثلما تتفجر الأرض بالنبع المنتظر منذ أول الأبـد، مثلما يستل السيف من غمده الصامت، ووقفت هناك على بعد لحظة واحدة من بريق العين الصامدة. عمري كله لم أرَ كيف يبكي الإنسان مثلما بكت أم سعد. تفجر البكاء من مسام جلدها كله. أخذت كفاها اليابستان تنشجان بصوت مسموع. كان شعرها يقطر دموعاً. شفتاها، عنقها، مِزَقُ ثوبها المنهك، جبهتها العالية، وتلك الشامة المعلقة على ذقنها كالراية، ولكن ليس عيناها.

- ولو يا أم سعد؟ أنت تبكين؟

- أنا لا أبكي يا ابن عمي. أود لو أستطيع. لقد بكينا كثيراً. كثيراً.. كثيراً. أنت تعرف. بكينا أكثر مما طافت المياه في المخيم ليلة أمس، وذات صباح كان سعد قد ذهب. إنه يحمل مرتينة الآن،

وتشتي عليه ماء ورصاصاً. لا أحد يبكي الآن، ولكنني يا ابن عمي، صرت امرأة عجوزاً. صرت أتعب. أمضيت كل الليل غارقة في الوحل والماء. عشرون سنة...

وصل النشيج إلى حلقها فاعترض الكلمة. فرشت راحتيها أمامي وابتلعت الغصة التي كدت أسمع صوت سقوطها في صدرها المليء بحطام العذاب والأسى..

- ماذا أقول يا ابن عمي؟ في الليل أحسست بأنني قريبة من النهاية... ما النفع؟ أريد أن أعيش حتى أراها. لا أريد أن أموت هنا، في الوحل ووسخ المطابخ.. هل تفهم ذلك يا ابن عمي؟ أنت تعرف كيف تكتب الأشياء، أنا لم أذهب إلى مدرسة في عمري، ولكننا نحس مثل بعضنا. يا ربي! ماذا أقول؟ أمس في الليل فكرت بذلك جيداً، ووجدت الكلمات المناسبة، وفي الصباح نسيتها.. طيب! أنت تكتب رأيك، أنا لا أعرف الكتابة، ولكنني أرسلت ابني إلى هناك.. قلت بذلك ما تقوله أنت. اليس كذلك؟

شعرت بذلك النصل الذي ينبثق فجأة من أحضان الكلمة البسيطة، وينقذف في صدورنا بسرعة الرصاصة وتصويب الحقيقة، ولوهلة رأيت شريط الوحل الداكن الذي كان يتدلى على طرف ثوبها شيئاً يشبه تاج الشوك.

- تعالي يا أم سعد. اجلسي هنا. أنت متعبة فقط، وربما كان شوقك لسعد وقلقك عليه هما اللذان يصدعان رأسك. وكذلك الطقس، أنت تشعرين بالتعاسة لأنك تعرفين بأن المطر سيستمر طوال النهار، وستعملين في جرف الوحل طوال الليل. تعالي اجلسي، لا تسمحي لذلك كله أن يهدمك.

جلست، وتنفست الصعداء مثلما يفعل الإنسان حين يريد أن يهيل على الغيوم السوداء في صدره هواءاً نقياً.

- لا، يا ابن عمي. تعرف ماذا كان يفعل سعد حين كان يطوف المخيم؟ كان يقف ويتفرج على الرجال وهم يجرفون الوحل، ثم يقوم لهم: ذات ليلة سيدفنكم هذا الوحل. ومرة قال له أبوه: لماذا تقول ذلك؟ ماذا تريدنا أن نفعل؟ هل تعتقد أنه يوجد مزراب في السماء وعلينا أن نسده؟ وضحكنا كلنا، ولكنني حين نظرت إليه رأيت في وجهه شيئاً أرعبني، كان منصرفاً إلى التفكير وكأن الفكرة راقت له، كأنه سيذهب في اليوم التالي ليسد ذلك المزراب.

- ثم ذهب؟

- ثم ذهب.

ونظرت إلي مباشرة... كان ثمة ارتداد لا يصدق. تراجع طوفان الدموع الذي كانت تسبح فيه وأشرقت كما يضاء الشيء من الداخل.

- أتعرف، يا ابن عمي؟ أنا لست قلقة عليه. لا. هذا ليس صحيحاً. قلقة وغير قلقة. ربما كان لديك، أنت الذي ذهبت إلى المدرسة، اسم لهذه الحالة... فأمس فقط جاء رفيقه وقال لي إنه بخير.

- جاء عندك؟

- لم أر وجهه. كان الليل ثقيلاً، وكنا نشتغل بالوحل والماء حين جاء ووقف بجانبي. كان عملاقاً، يخزي العين، وقال لي: سعد يسلم عليك. إنه بخير. وسيهديك غداً سيارة، ثم ذهب.

- يهديك سيارة؟

- أجل. ألا تعرف؟ يعني أنه سينسف سيارة.

- وهل فعل؟

- ماذا؟ سعد لا يقول شيئاً ثم لا يفعله. أنا أعرفه جيداً.

وفي الخارج، شقت الشمس طريقها وسط الغيوم الداكنة مثلما يشق المحراث ثلماً في الأرض، وقذفت حزمة دفء في الغرفة. أكانت الصدفة أن سقطت الشمس على وجهها وهي جالسة هناك؟ لقد ابتسمت، وبدت قوية وشابة كما كانت تبدو دائماً.

لقد انتظرت حتى المساء لأسمع نبأ سقوط سيارة إسرائيلية في كمين مقاتلين. وارتقبت بلهفة أن أسمع تلك التتمة الرائعة للخبر: «وعاد الفدائيون إلى قواعدهم سالمين.»

لست أدري لماذا مضيت من توي إلى المخيم، وفي مستنقع الوحل شهدت أم سعد واقفة مثل شارة الضوء في بحر لا نهاية له من الظلام، وقد رأتني قادماً، فلوحت بيديها، كان صوتها أعلى من صوت الرعد المدوي في سقف السماء، وانهمر الصدى من كل صوب كالشلال:

- أرأيت؟ قلت لك أن سعد سيهدي أمه سيارة.

وكان المطر ينهمر، ولم يكن رذاذه الصاخب في تلك اللحظة إلا تطاير الماء أمام زورق صامد يشق طريقه كالقدر..

في قلب الدِّرع

كانت الضحكة تملأ وجهها كما لم أرها أبداً، ووضعت أم سعد أشياءها الفقيرة في الزاوية، وقالت:

- جاء سعد.

وحومَّت في الغرفة فيما كان الدوي في الخارج يستقبل مجيء العيد، وجلست، واضعة كعادتها كفيها في حضنها مطويتين إلى بعضهما على تلك الصورة الفريدة التي تشبه عناقاً حميماً، وأمامي برقت عينا سعد وراء مدفعه القصير، قادماً وهو مضرج بالتراب من وراء الليالي الطويلة التي غابها، وسألتها:

- لقد غاب سنة.

- كلا. تسعة شهور وأسبوعين، جاء أمس.

- سيظل؟

- لا. قطبوا له ساعده، كانت رصاصة قد...

وشمّرت عن كمها، وأرتني كيف شقت الرصاصة لحم الساعد

من الرسغ إلى الكوع، وفي ساعدها الأسمر القوي الذي يشبه لونه لون الأرض، رأيت كيف يمكن للأمهات أن ينجبن المقاتلين، وخيل إلي لوهلة أنني أرى أثراً لجرح عتيق، ملتحم ولكنه كامن، يمتد من رسغ أم سعد إلى كوعها، وقلت:

- أنت أيضاً.

- أنا؟ آه، ذلك جرح عتيق، من أيام فلسطين.. سرق الواوي دجاجة فسحبته من تحت سلك شائك وطققت له رقبته، جرحني السلك يومها.

- وسعد؟

- يقول أنه سيرجع حين يلتئم الجرح.

ولاحظت، لنفسي، كيف قالت إنه «سيرجع» ولم تقل إنه «سيذهب» ولكنني لم أفكر كثيراً، كانت أم سعد قد علمتني طويلاً كيف يجترح المنفي مفرداته وكيف ينزلها في حياته كما تنزل شفرة المحراث في الأرض، وقالت:

- اسم الله عليه، إنه يحمل ساعده كما يحمل النيشان، قال أنه صار قائد فرقته، وإنهم يسألونه دائماً: لماذا، يا سعد توسع خطواتك؟ إنه في الأمام، وقلت له: ابن أبوك.

- اشتاق لكِ كثيراً؟

- مَن؟ سعد؟ يخزي العين. عبطني لحظة واحدة وتركني، فقلت له: ولو يا سعد؟ ألا تعبط أمك وتبوسها بعد هذا الغياب؟ أتعرف ماذا قال؟ قال: ولكنني رأيتُك هناك. وضحك.

- كيف رآك هناك؟

- قال أنه كان في فلسطين. غرّب كثيراً، وظل يمشي جمعة أو أكثر مع أربعة من رفقائه. قال أنه قرب كثيراً من البلد، ثم اختبأوا في الزرع، لم أفهم لماذا، كان يحكي وكنت أنظر في عينيه، يا عيني عليه، يا عيني عليهم كلهم، كان يحكي وكنت أقول لنفسي: كان هناك، فلم أفهم لماذا اختبأوا في الزرع.. قال إنهم..

❖ ❖ ❖

جاءوا، وأخذت السماء تزخ. حين يسقى فولاذ الرشاشات تضحي له رائحة الخبز، هكذا قال سعد.

كانوا قد حوصروا، إلا أنهم احتفظوا بمكمنهم هادئين، وقدروا أن الحصار سينفك بعد ساعات. امتد الحصار أياماً حتى أنهكهم الجوع، وأخيراً وصلوا إلى باب خيارين: أن يظلوا كامنين، طاوين أنفسهم على عذاب أخذ يشتد ولا يعرفون متى يمضي، أو أن يتركوا

لأحدهم أن يجرب مغامرة الذهاب إلى القرية القريبة.

كان الخيار صعباً، قال سعد، وقرروا الانتظار حتى المساء قبل أن يعقدوا العزم على قرار.

وعند الظهر قال سعد لرفاقه: ها قد جاءت أمي!

ونظر الرجال إلى رأس الطريق الضيق المنحدر كالثعبان من التلة، وهناك رأوا امرأة في ثوبها الريفي الطويل الأسود تنزل قادمة صوبهم. تحمل على رأسها بقجة، وفي يدها رزمة من العروق الخضراء.

وبدت لهم عجوزاً، في عمر أم سعد وفي قامتها العالية الصلبة، ومن خلال الصمت المخيم كصمت الموت، كان صليل الحصى تحت قدميها العاريتين يسمع كأنه الهمس.

وقال أحد الاربعة:

- أمك؟ أمك في المخيم يا أخوت.. ضربك الجوع بالعمى!

وقال سعد:

- أنتم لا تعرفون أمي.. إنها تلحق بي دائماً، وهذه أمي.

وصارت المرأة في محاذاة مكمنهم، وباتوا يسمعون حفيف ثوبها الطويل المطرز بالخيوط الحمراء، ونظر إليها سعد، من خلال أشجار العليق التي تسد مكمنه، وفجأة ناداها:

- يما يما.

وتوقفت المرأة لحظة، وأدارت بصرها في الحقول الصامتة حولها، وظلوا يراقبونها صامتين فيما أمسك أحدهم بذراع سعد وضغط عليها محذراً، لحظة، لحظة أخرى، احتارت المرأة، ثم عادت تسير.

خطوتان، ثلاث خطوات، وأعاد سعد نداءه:

- يا يما، ردي علي!

مرة أخرى وقفت المرأة، ونظرت حولها محتارة، وحين لم ترَ شيئاً أنزلت الصرة عن رأسها ووضعتها على الأرض وأراحت فوقها رزمة العروق الخضراء، وحطت كفيها على خاصرتها وأنشأت بعينيها تنقب في دغول العليق حولها.

وقال سعد:

- أنا هون يما!

والتقطت العجوز مصدر الصوت، فتأملته برهة إلاّ أنها لم ترَ شيئاً، وأخيراً انحنت فلمّت قضيباً مشقت عنه أوراقه وخطت نحوهم خطوتين، ثم وقفت ونادت:

- لماذا لا تخرج وتريني نفسك؟

ونظر الرجال نحو سعد الذي تردد برهة، ثم علق رشاشه على

كتفه، وسار بهدوء نحو المرأة:

- أنا سعد، يا يما، جوعان!

وسقط القضيب من يد الفلاحة العجوز وهي تحدق إلى الشاب الذي ولده الدغل الشائك، ينحدر نحوها بالكاكي وبالرشاش على كتفه، أما رفاقه فقد هيأوا بنادقهم، فيما أخذ سعد يقترب من العجوز.

وقالت المرأة:

- يجوّع عدويك يا ابني.. تعال لعند أمك.

واقترب سعد أكثر، كانت خطواته مطمئنة وكان رشاشه ما زال يتأرجح على كتفه من غير اكتراث، وحين صار على بعد خطوة منها فتحت ذراعين واحتضنته:

- يا حبيبي.. يا ابني.. الله يحميك.

- وقال سعد:

- يا يما، بدنا أكل.

وانحنت المرأة فناولته الصرة، وحين أخذها رأى عينيها تدمعان، فقال لها:

- حلفتك بالنبي لا تبكي يا يما!

قالت العجوز:

- معك بقية الاولاد؟ أطعمهم. في المغرب سأمرق من هنا وأضع الزوادة على الطريق... الله يحميكم يا أولادي.

وعاد سعد بالزوادة، ولم يلحظ رفاقه أية دهشة في ملامحه. أكلوا، وقال أحد رفاقه:

- لنغير مكاننا، فقد تعود بالعسكر.

إلّا إن سعد لم يرد، وبعد قليل قال لهم:

- إنها أمي، وقد رأيتم ذلك بأنفسكم، فكيف تعود بالعسكر؟

وفي المساء جاءت العجوز فوضعت الزوادة، ووضعتها هناك فجر اليوم التالي، وفي كل مرة كان سعد يناديها من وراء الدغل:

- يسلموا إيديكي يما.

ويسمعونها تقول:

- الله يحميك يا ابني.

◆ ◆ ◆

قالت أم سعد:

- تلك المرأة العجوز ظلت خمسة أيام تطعمهم.. قال لي سعد إنها لم تتأخر ساعة واحدة، حتى انفك الحصار، جاءت فوضعت

الزوادة ونادت:

- العسكر راحوا.. الله يوفقكم..

وعـادت أم سعد فطوت راحتيها على حضنها كما يتعانق مخلوقان لا فصام بينهما، وقالت:

- سعد يقول أنه رآني هناك، وإنه لولا أن أطعمته لمات جوعاً، ولولا أن دعوت له لقتلته الرصاصة التي شطفت لحم ساعده.

وقامت، ففاحت في الغرفة رائحة الريف الذي كمن فيه سعد، محاطاً بذلك الدرع الذي لا يصدق، وقالت:

- سيرجع بعد أن يلحم جرحه، قال لي ألّا أشتاق له كثيراً فهو يراني هناك دائماً.. ماذا تريدني أن أقول له؟ قلت له: الله يكون معك ويحميك.

واستدارت، خطوة، خطوتين، وفجأة سمعت نفسي أنادي:

- يا يما.

فوقفت.

الذين هربوا والذين تقدموا

فرشت أم سعد راحتيها أمامي، ورأيت بين شقوقهما التي اهترأت مع التعب والعذاب، آثاراً حمراء لخيوط من الجروح لم تلتئم تماماً بعد، فسألتها:

- ما الذي حدث يا أم سعد؟ هل اعتركت مع شجرة عليق؟

وعادت تدفع أمام وجهي راحتيها اللتين تشبهان جلد أرض يعذبها العطش، ثم قالت:

- لا، يا ابن عمي، لقد أمضيت ليلة أمس الأول أَلِمّ عن الأرض قطعاً حادة من المعدن..

- ليلة أمس الأول؟

.. كانت أم سعد تعشي ابنها الصغير حين سمعت دوي الانفجار الأول. مخيم البرج لا يبعد كثيراً عن المطار، ولأول وهلة قالت لنفسها: هناك من بكّر بالاحتفال بعيد رأس السنة. ثم أصاخت السمع، فقد قالت لها أحاسيسها إن الجو يحبل بخطر أشد.

كان نهارها صحراء قاحلة من التعب المضني. منذ أبكر الصبح وهي تعتصر الملابس والمماسح، تنظف الشبابيك وتجلو الأرض وتنفض السجاجيد (في بيوت الآخرين، طبعاً، فبيتها في المخيم غرفة مشطورة من النصف بحائط من التنك). كانت متعبة، وقد أخذت تعشي ابنها الصغير لتضعه في فراشه وتنام، حين سمعت دوي الانفجار الأول.

ولم تتردد لحظة حين سمعت الانفجار الثاني، فتركت صغيرها وعادت إلى الخارج، وفوق كثبان الرمل الأحمر مضت نحو الطريق، وهناك استطاعت أن ترى أذرعة النار تغوص في غيوم الدخان الماضي إلى العتمة.

وقفت أم سعد هناك حائرة، كانت تسمع الدوي وتسمع أزيزاً غامضاً، ولكنها لم تعلم بالضبط ماذا يتعين عليها أن تفعل.

- هل كنتِ وحدك هناك؟

- وحدي؟ ماذا تعتقد يا ابن العم؟ وحدي؟ كنا كالنمل. كل نساء المخيم وأولاده وشبابه خرجوا كأنهم اتفقوا على ذلك سلفاً، ووقفنا جميعاً هناك. لا نعرف ماذا يتعين علينا أن نفعل. وفي الأفق كنا نرى الحرائق، ثم سمعنا محرك طائرة يجرش عن قرب، فرفعنا رؤوسنا إلى فوق.

❖ ❖ ❖

جاءت الطائرة، مطلية باللون الأسود، وحلقت على علو خفيض، وأخذت تزخ رصاصها على الشارع، وسمعت أم سعد صوتاً معدنياً كالرنين يملأ الطريق، وفي اللحظة التالية تقدمت نحو الأسفلت، ورفعت بين أصابعها قطعة حديد ذات أربعة رؤوس مسننة.

قالت أم سعد لرفيقاتها:

- هذه الحدائد تفرقع دواليب السيارات.

ودوَّرتها بين أصابعها، ثم قالت:

- يا صبايا، لنلمّها ونقذف بها إلى الرمل..

واندفعت النساء، ومن ثم اندفع الأولاد، إلى الطريق المظلم

وأخذوا يجمعون قطع الحديد بأيديهم العارية ويقذفون بها إلى الرمل، وبسرعة انتشروا، كالأشباح، على طول الطريق، ينظفونه من العراقيل، وفي كل مرة كانت الطائرة تعود كانوا يقذفون بأنفسهم إلى الرمل، ثم يعودون إلى الطريق مع ذهابها.

❖ ❖ ❖

قالت أم سعد:

- كانت الطائرة تحلق على علو منخفض جداً، تكاد تمس رؤوسنا، وفي مرة كانت قريبة منا إلى حد اعتزمتُ أن أقذفها بحجر، ولكنها مضت مسرعة، بعد أن رمت حفنة جديدة من تلك الحدائد الشيطانية، ولكننا أسرعنا فلممناها.

- لقد نظفتم الطريق إذن؟

- في اللحظة ذاتها. كنا نعمل كالعفاريت، ولكن السيارات التي تركها أصحابها مع الغارة في منتصف الطريق كانت في وضع غير مناسب، وقد حاولنا أن ندفشها إلى اليمين، أو إلى اليسار، إلا إنها لم تتزحزح، ثم خفنا أن يرانا أصحابها فيقولون إننا كنا نحاول سرقتها.

- ولو! ولو يا أم سعد؟

- أجل. أنت لا تعرف شيئاً... ما الذي أستطيع أن أفعله حين يؤشر صاحب سيارة عليّ، وأنا في ملابسي الرثة وشعري الذي طيّر ريح الطائرة غطاءه ووجهي الملطخ بالرمل والعرق.. ويقول:

- رأيتها تسرق سيارتي؟

- غلطانة يا أم سعد؟ أنت كنت تقومين بعمل عظيم..

- أعرف، ولكنني يا ابن العم لا أستطيع أن أثق برجل ترك سيارته في عرض الطريق، تسد الدرب، وهرب.. في لحظة مثل تلك اللحظة.. لا، لا أستطيع أن أثق!

◆ ◆ ◆

هدأت النار، وظل الدخان يطرش الأفق، ووقفت أم سعد على الرمل تنظر إلى كفيها المجرحتين، وبدأ الأطفال يعودون إلى بيوتهم.

وأخذت، لبرهة، تفكر بسعد وأحسته في جسدها كما كان يوم أن ولد، يرجها بمشاعر لا تستطيع أن تعرف طبيعتها، يملؤها بنوع مذهل من الثقة بالمستقبل ومن الأمل فيه.

في مكان ما، قالت لنفسها، يقف سعد الآن تحت سقف من

الدخان، ثابت الساقين كما كان دائماً، كأنه شجرة، كأنه صخرة، يقبض بسلاحه ثمن ذلك الدخان كله.

◆ ◆ ◆

عادت أم سعد، ففرشت راحتيها أمامي، كانت الجروح تمتد فوق خشونتهما أنهراً حمراء جافة، تفوح منهما رائحة فريدة، رائحة المقاومة الباسلة حين تكون جزءاً من جسد الإنسان ودمائه.

قلت لها:

- لا عليك... إنها جروح بسيطة..

- هذه؟ طبعاً، ستمحى. ستمحوها الأيام. سيملأها غبار التعب، سيتراكم فوقها صدأ الأواني التي أغسلها، وقذارات البلاط الذي أمسحه، ورماد المنافض التي أنظفها، وعكورة المياه التي أغسل بها.. أجل يا ابن العم، أجل... ستغرق هذه الجروح تحت سواقي التعب، يجففها اللهاث، وتغتسل طوال النهار بالعرق الساخن الذي أعجن به خبز أولادي.. نعم يا ابن العم... ستضع الأيام الذليلة فوقها قشرة سميكة، وسيضحي من المستحيل على أي كان أن يراها، ولكنني أعرف، أنا التي أعرف، أنها ستظل تخزني تحت تلك القشرة. أعرف.

الرسالة التي وصلت بعد ٣٢ سنة

أخذت أم سعد تتذكر، يومها، أياماً بدت بعيدة، وتحدثت عن رجل اسمه «فضل» ، تُراه قتل في ١٩٤٨، أم بعد ذلك؟ إنها لا تذكر بالضبط، ولكن ذلك لم يكن مهماً تماماً، فقد كان الأمر كله منذ البدء يتعلق برجل آخر.

جاءت يومها مهمومة، وأخذت تدور في أنحاء الدار غير عارفة ماذا يتعين عليها أن تفعل بالضبط، وبدت لي ضائعة لا تسمع ما أقوله، ثم غابت في الشرفة منصرفة إلى عمل ما لم يبد لها، ولا لي، ضرورياً أبداً، وقالت زوجتي:

- ثمة شئ ما يجثم بالهمّ على كتفي أم سعد.

وأنا الذي أعرف أن أم سعد صندوق مغلق على همه، لا يبوح لأحد اذا ما ضجت داخله أصوات التعب والقلق والخوف من المجهول، وكدت أمضي إلى شأني لو لم تسألني عما إذا كنت أعرف

فلاحاً من الغابسية كان اسمه « فضل» ، أو عما إذا كنت سمعت عنه.

وحين قلت لها أنني لم أسمع عنه زمّت شفتيها محتارة، ثم سألتني إن كنت أعرف رجلاً اسمه « عبد المولى...». كان من قرية تقع إلى الشرق من الغابسية:

- أهو الرجل الذي يشتغل مع الإسرائيليين وقد صار عندهم نائباً في البرلمان؟

- هو بعينه.

- وما الذي جعلك تتذكرينه؟

وبدت محتارة، وإلى حد غامض بائسة وتعسة وغير راغبة في الكلام، وأخذت أستحثها يدفعني فضول لمعرفة معنى ذلك الانبثاق الغريب لأناس ظلوا غائبين عنها وعن ذاكرتها عشرين سنة، وأخيراً اعترفت بصوت كالهمس أن «عبد المولى» قتل «فضل».

- أحدث مكروه لسعد؟

قالتها اختصار مدهش، ومع ذلك فقد صار الأمر أكثر غموضاً وتعقيداً، ومضت تحوم مثل دوريّ يشعر بالبرد ويفتش عن ملجأ.

- بعيد الشر، وأمس فقط بعث لي خبراً، والصحيح يا ابن العم أنني محتارة..

- ماذا حدث يا أم سعد؟

ومن صدرها أخرجت ورقة مطوية معلوكة ودفعتها نحوي:

- قرأها لي حسن، ومن ساعتها وأنا مهمومة.

كنت أعرِف خط سعد، وقد كان خطه، بقلم رصاص سميك الرأس، يتحدث عن رفيق له اسمه «ليث» وقع في الأسر، وعلم سعد أن أهله قد يبعثون إلى «عبد المولى» طالبين منه بحكم علاقات عائلية قديمة تربطهم به، أن يتوسط لابنهم الأسير. وحاولت أن أمضي في قراءة تلك الرسالة الغريبة، إلا إن الخط بدا مشوشاً وغائباً في ثنيات الورقة واهترائها.

- وما الذي يقلقك أنت يا أم سعد؟

- سعد يقول لي أن أذهب إلى أمه، وأن أقول لها لا؟

- وهل ذهبتِ؟

- مررت في الصباح قرب بيتهم في المخيم، وتحيّرت أمام الباب. هذا شيء صعب. يا ابن العم، أنت في هذه الحالة تقول لهؤلاء الناس، مهما قلت «تفو عليكم».

- وما علاقة سعد بهذه القصة؟

- إنه يعرف ليث منذ كانا صغيرين، وأنا أظن أن ليث قد أوصى سعد. لماذا أكذب عليك؟ ليث قال لسعد إنه إذا حدث له شيء،

وحاول أهله الكتابة لابن عمهم عبد المولى، فما على سعد إلا أن يطخهم.

وجلستْ على المقعد مثلما يسقط الشيء من تلقائه، واضعة راحتيها فوق بعضهما في تلك الحركة الفريدة التي تشبه عناق طيرين، وكان بالوسع رؤية رسالة سعد تطل بطرفها الأبيض ومن بين راحتيها، ذات صوت نائح قادم من بعيد وليس بالوسع رده أو طيه، وفجأة أحسست أنها نقلت إليّ همها كله وأسقطته على كتفي، ثم قالت:

- أنا أعرف سعد، وسيفعل.

- وهل تأكدت أن أهل ليث كتبوا إلى عبد المولى؟

- لا لم أتأكد، وعلي أن أفعل، هذا هو الشيء الصعب.. ماذا تعتقد؟ لو كنت متأكدة من شيء لما ترددت في شيء، ولكن أن أذهب إلى أم ليث، وأقول لها صباح الخير يا أم ليث، يا فتاح يا عليم، سعد يقول لكم... لا. ذلك شيء لا يستطيع الإنسان أن يفعله بسهولة، ومنذ ليلة أمس وأنا كمن يحمل على ظهره كيس بلان... أقول لك الصحيح، منذ أن سمعت اسم عبد المولى يقرأه لي حسن تزرزع بدني كمن ركبته العفاريت.. هذا الرجل يا سبحان الله كنت أتوغوش منه منذ زمان، من أيام فلسطين.

سألت، بدافع الفضول الذي كان ما يزال يمتلكني:

- قبل أن يموت فضل؟

- تذكرت فضل على الفور. أنت لا تستطيع أن تتذكر عبد المولى مفصولاً عن فضل، وقد جاء الاثنان معاً على رسالة سعد.

- قلت إن عبد المولى قتل فضل؟

- ليس تماماً. يعني أنه لم يحمل بارودة وطخه.

- كيف إذن؟

- عبد المولى كان متزعماً حمولته، رجل عنده أرزاق ويشغّل الفلاحين، ويملك زيتوناً وتبغاً يبيعه لشركة قرمان.. أنت لا تذكر تلك الأيام، وطبعاً أنت لا تعرف فضل، فضل فلاح من حالاتنا، لا أرض ولا ميّ، وفي الثورة سنة الـ ٣٦ طلع فضل إلى الجبل. كان حافي القدمين، وحمل مرتينة وغاب طويلاً.

* * *

كانت أم سعد ما تزال صبية آنذاك في مطلع عمرها تسمع عن الأمور ولا تدركها تماماً، تتحدث عن إضراب الـ ٦ أشهر وعن الفلاحين الذين حملوا السلاح وطلعوا إلى الجبل.

- وبعدين جاء المكتوب من ملوك العرب، ونزل الرجال إلى بيوتهم، وأنا لا أذكر الأشياء تماماً، واذا سألتني الآن كيف.. لما عرفت، ولكنني أذكر تماماً حادثاً واحداً، فقد قالوا إن القرية الفلانية ستقيم احتفالاً. يا حسرة! احتفال لماذا؟ على كل حال يومها قالوا لنا أن نذهب إلى هناك، وكان الذهاب ببلاش، فرحنا نتفرج.

وعاد فضل، مع من عاد، إلى القرية؛ نزل من التلال حافي القدمين كما صعد إليها وكما عاش فيها، ويبدو أن الطريق كانت طويلة فوصل إلى الساحة مع آخر من وصل من القرى المجاورة، ممزق القدمين والثياب ومتعباً ومستنزفاً حتى آخر أنفاسه. ولم يجد مكاناً في الساحة المحتشدة بالناس غير عتبة دار تقع في آخرها، فجلس يهدئ أنفاسه ويتدبر أمر قدميه الممزقتين المحشوتين بالتراب والشوك والدماء.

- كنت واقفة مع النسوان غير بعيدة عنه، وفي البدء لم أنتبه إلى وجوده لولا أن سمعت امرأة تقول لأخرى إنه فضل الذي يعمل في المعاصر والذي كان من أول الذين طلعوا إلى الجبل، ثم أخذ الناس يصفقون، ونظرنا إلى الأمام فرأينا عبد المولى يصعد إلى الطاولة ويبدأ بالحكي، وهات يا تصفيق. لست أذكر الآن عما تحدث يومها، ولكن لا شك أنه حكى عن الثورة والانتصار والإنكليز واليهود،

ولا أعرف لماذا في تلك اللحظة نظرت إلى فضل، فرأيته يمد ذراعه مشيراً إلى الناس ويقول شيئاً، لأول وهلة حسبت أنه يطلب شربة ماء أو أكلاً، فذهبت نحوه علني أساعده، ولكنني عرفت حين صرت قربه أنه كان كمن يحدّث نفسه، ولم أعد أنسى ذلك أبداً. الصحيح يا ابن العم أن هذا كل شئ أعرفه عن فضل.

- وماذا كان يقول؟

- سمعته يقول:

«وَلْكُو، إسّا أنا الذي تمزعت قدماه، وهذا الذي تصفقون له؟»

ولا أعرف لماذا ظلت هذه الجملة في رأسي طول الوقت. أنت تعرف، لم أكن أذكرها كل يوم، ولكنها كانت في رأسي، وحين جاء مكتوب سعد جاء الاثنان معاً، عبد المولى وفضل...

وعادت ففرشت الورقة البيضاء التي هرّأها الطي أمام عيني. ورأيت فيها على صغرها واختصارها رواية طويلة لا تكاد تصدق، ومضت أم سعد تقول:

- والآن، عبد المولى مرة أخرى بعد عشرين سنة، هل تتصور ذلك يا ابن العم؟ كيف يمكن لذلك أن يحدث؟ إنني لا أتحدث عن ليث، ولكن عن فضل.. هل تفهم ماذا أقصد؟ فضل مات بعد ذلك، بعضهم يقول إنه مات مسلولاً في المعصرة ، وبعضهم يقول إنه زلق

ووقع في الوادي، وبعضهم يقول إنه قتل في حرب الـ ٤٨، بل إن بعضهم يقول إنه طلع من فلسطين في الـ ٤٩ وعاد إليها فقتلوه في الطريق، ولكن ذلك ليس هو الموضوع. أنا أتصوره دائماً جالساً على العتبة والدم ينزف ممزوجاً بالتراب والغبار من قدميه، ولا أتصوره ميتاً، وفي نفس الوقت أسمع أصوات التصفيق والتهاني والزغاريد.. وعبد المولى، مثلما قلت، صار مهماً هناك، خاين ولذلك مهم عندهم. في البرلمان، كما قلت. يا حيف!

وقامت، وأخذت تحوم من جديد وكأنها مربوطة إلى تلك الورقة التي كتبها سعد في مكان مجهول (ربما أسندها إلى جذع شجرة، أو إلى ذراع سلاحه، لذلك بدت الخطوط خشنة سميكة مقطعة)، وقلت لها:

- وما الذي ستفعلينه الآن يا أم سعد؟

ومضت تهز رأسها محتارة، ثم اهتدت إلى أول الخيط:

- لو ذهبت عند أم ليث وذكّرتها بحكاية فضل وعبد المولى، أينفع ذلك شيئاً؟

- ربما، ولكن لماذا تتحدثين وكأنك متأكدة من أن أهل ليث يفكرون في الكتابة لعبد المولى؟

- لا. أنا لست متأكدة من شيء، ولكن لا بد من أن أفعل شيئاً...

آه يا ابن العم! لو يومها قام فضل عن العتبة وطخ عبد المولى، أما كانت هذه المشكلة قد انتهت؟

التزمت الصمت، فقد كدت أقول لها إنه لو حدث ذلك لما حدثت أشياء كثيرة، ولما أمضت هي نفسها عشرين سنة في المخيم، ولكنني عدت فقلت:

- لو فعل ذلك لقتله الناس.

- صحيح، يومها، لقتله الناس.. كان أحسن له أن يظل في الجبل.. ولا يحضر تلك الحفلة.

- لو ظل في الجبل، يا أم سعد، لما استطاع عبد المولى أن يقيم الحفلة.

- صحيح، لو ظلوا كلهم، ولكن ماذا حدث؟ المسكين فضل ركبوا على ظهره، في المعصرة، وفي الجبل، ثم في المعصرة، ولو جاء إلى المخيم لركبوا أيضاً على ظهره.

- لذلك يريد سعد أن يمنع ذلك، هل عرفت الآن، إنه يريد ألا يجعل من ليث فضلاً آخر..

استدارت، ونظرت إليّ مباشرة: ذلك الرمح الذي تسدده في لحظات النبوءة بسرعة الرصاصة وتصويب الحقيقة، ومدّت نحوي بذراع بطيئة ولكن صلبة، تلك الورقة المهترئة البيضاء التي تشبه

جناح طائر طريد قادم من مكان يعبق برائحة الموت والصمود، جاءت كلماتها مشدودة كأنها القصف:

- لم يقل أحد ذلك كله لفضل المسكين.. فلماذا لا تقوله أنت الآن، أنت الذي تعلمت من الكتب والمدارس، لماذا لا تقوله لأهل ليث؟

الناطور.. وليرتان فقط

حزمت أم سعد صرتها الصغيرة، وحملتها تحت إبطها وخرجت من الباب عائدة إلى المخيم، ولكنها ما لبثت أن عادت بعد دقائق قليلة، فأمسكتني من زندي وأخذتني إلى الشرفة، ثم أشارت إلى رجل قصير يقف قرب دراجة عند المنعطف المنحدر من الزقاق إلى الطريق العام:

- أترى ذلك القرد؟

- ذاك الذي يسند الحائط قرب البسكليت؟

- هو بعينه، أرجوك أن تذهب إليه وتقول له أن يريك عرض أكتافه، ويكفيني شره..

- ولماذا يا أم سعد؟

- أقول لك، إن لم تفعل أنت فسأنزل أنا وأضربه.

ونزلت مع أم سعد فأخذتها من الطرف الآخر للزقاق، متجنباً المرور حيث يقف ذلك الرجل القصير الغامض، وفي الطريق قالت

لي أم سعد إن الرجل الواقف بانتظارها إنما يريد حملها على العودة إلى العمل في إحدى العمارات الكبيرة وسط المدينة، حيث أمضت لمدة شهر وثلاثة أيام تنظف الدرج والمدخل، وتأخذ في كل مرة خمس ليرات.

- ومن هو الرجل هذا؟

- إنه ناطور البناية، وقد أرسله صاحبها، ومنذ جمعة وهو يتعقبني، وأنا يا ابن العم، لا أريد العمل هناك، ولا أريد أن أرى وجهه، وجه القرد، صاحب البناية تلك.

- ولكنه رزقك يا أم سعد.

- هكذا كنت أحسب. أتعرف؟ جاءني الناطور ذات يوم وقال لي إنه وجد لي عملاً في البناية التي يعمل فيها، شطف الدرج والمدخل من فوق، من الطابق السابع أو الثامن، لست أدري، إلى الطريق. وقال لي: تأخذين خمس ليرات كل مرة. كان الصعود صعباً فوعد أن يطلعني بالأسانسير، خفية عن صاحب العمارة، وذلك جعل العمل أكثر سهولة. ثلاث مرات بالأسبوع قلت لنفسي إن ذلك شيء جيد، وإن الله يسّرها.. ولكن بعد شهر وثلاثة أيام...

* * *

كانت أم سعد قد وصلت، نازلة، إلى الطابق الثالث، لاهثة وراء الماء ورغوة الصابون وبرد الشتاء يقرص قدميها الحافيتين. بلحم كفيها المضرجتين بآثار أحذية الصاعدين والهابطين كانت تفرك الأرض الرخامية وسط ليل الناس النائمين عميقاً في دفء غرفهم المترامية وراء الأبواب المغلقة، وفجأة أحست بامرأة تقف وراءها، مكتفة ذراعيها على صدرها ناظرة إليها بإمعان، كأنها كانت تنتظرها هناك منذ دهر، وحين التقت نظراتهما، قالت لها المرأة:

- يعطيك العافية.

- الله يعافيكي يختي..

وانتصبت أم سعد بقامتها العالية، شادة ظهرها إلى الوراء وهي تستشعر الألم يطوي عظامها، كانت المرأة الواقفة هناك تبدو ريفية، وغريبة في انتظارها الغامض.

- خير؟

وقالت المرأة:

- جئت إليك لأقول شيئاً، أنا التي كنت أنظف هذا الدرج ثلاث مرات في الجمعة، وقبل شهر وثلاثة أيام جاء الخواجا فقال لي مع السلامة.. كم يعطونك؟

- خمس ليرات يختي.

- كانوا يعطونني سبع ليرات. أنا امرأة عندي أربعة اولاد، وقالوا لي سبع ليرات كثير...

- وجعلوني أنا أقطع رزقك. الله يقطع رزقهم!

واقتربت المرأة خطوتين نحو أم سعد:

- وما ذنبك أنت؟ أنت مثلي وعندك أولاد، ولكنني قلت لنفسي، وقد انقطع رزقي، آتي إليك، فلعل المكان الذي كنت تعملين فيه قبل أن تأتي إلى هنا ما زال شاغراً، فتدليني عليه...

وقالت أم سعد:

- ومنين الأخت، بلا صغرة؟

- أنا من الجنوب.

- فلسطينية؟

- لأ، لبنانية من الجنوب

ومسحت أم سعد راحتيها المبتلتين بردائها، ثم أخذت تنزل كميّها المشمرين، وتنظر حولها، ثم قالت:

- يختي، والله لم أكن أعرف، ولم يقولوا لي.. خذي اشطفي بقية الدرج، الله يقطع هالبناية وصحابها، أنا اشتغلت هنا شهراً وثلاثة أيام، وأجرة الأسبوعين الأخيرين لم أقبضها بعد. غداً صباحاً قولي للخواجا إن أم سعد سامحتني بالأجرة.

وأخذت المرأة تنشج، وكان الدرج مبتلاً، وهسيس الماء، وهو ينحدر درجة وراء الأخرى، يصعد إلى سمعيهما كهدير غامض لنهر عميق، ودون أن تلتفت أخذت أم سعد تنزل الدرج، وظلت لفترة طويلة تسمع نشيج المرأة الواقفة على مصطبة درج الطابق الثالث، وحين وصلت إلى المدخل وقفت هنيهة تصيخ السمع حتى سمعت صوت الماء يتدفق من جديد، وعندها فقط تنفست بعمق، ثم وجدت نفسها تبكي وهي تخرج إلى الطريق.

❖ ❖ ❖

-وماذا يريد ذلك الرجل القصير منك؟

- إنه يريدني أن أعود. قال لي في المرة السابقة إن شغل المرأة تلك لا يعجبهم، وإن شغلي أحسن، ولكنهم كذابون، وأنا أعرف أنهم يريدون توفير ليرتين.

وكنا قد صرنا قرب الطريق العام، فوقفت أم سعد وأخذت تشير بذراعها نحو المدينة الصاخبة المزدحمة المكومة في البعد:

- كلما أتذكر تلك القصة يهتز بدني كله، وأكاد أبكي.. إنني أُصاب بالارتجاف حين أرى ذلك الناطور يتعقبني من قرنة إلى

أخرى، يريدون ضربنا ببعضنا، نحن المشحّرين، كي يربحوا ليرتين.. تلك العمارة الكبيرة تِسْوَى أكثر من مئة ألف ليرة، أكثر بكثير، وهم لا يهمهم مع ذلك إلا أن يدفعوا واحدة منا لتقطع رزق الأخرى، وانظر ماذا يفعل ذلك الناطور! ذلك الناطور الكريه! إنه يستجيب لهم، ويظل طول النهار يكرج على البسكليت ليوفر لهم ليرتين! يا حرام..

وصرنا، عند ذاك، على الطريق العام، فوقفنا ننتظر السيارة التي تقلها إلى المخيم، وهناك خطر لها خاطر:

- لو أنا والناطور والحرمة قلنا للخواجا...

ثم صمتت، وأخذت تنظر صوب المدينة المكومة في غبار المساء الحزين.

أم سعد
تحصل على حجاب جديد

قالت أم سعد إن الأفندي غضب حين قالت له ذلك الصباح:

- إذا أردت سعد، لماذا لا تذهب إليه في الأغوار وتمسكه؟

كان قد اعتاد أن يمر عليها كل يوم، في أبكر الصبح، ويسأل عن سعد:

- هل عاد؟ سمعنا أنه جِاء. اكتبي له أن يعود.

وفي كل مرة كانت أم سعد تنظر إلى الأفندي صامتة ولا تقول شيئاً.

جاءها ذلك الصباح وكان قد قرر شيئاً، وقف هنيهة ثم سأل:

- أهذا هو سعد؟

وأخذ يشير إلى صورة معلقة على الحائط بدبوس، كان سعد في تلك الصورة وجهاً ضاحكاً تحت شعر غزير مجعد وغير ممشّط، وأحست أم سعد بخطر داهم، وتحت وطأة شعور غامض قفزت إلى الجدار فانتزعت الصورة ودستها في صدرها.

وقف الأفندي متحفزاً لحظة، ثم تقدم خطوة واحدة فحسب، ولكن أم سعد أوقفته بكلمة:

- إن كنت رجلاً، حاول أن تأخذها.

وقف الأفندي محتاراً، وأخذ ينظر حوله، وعادت أم سعد تقول:

- إذا أردت سعد، لماذا لا تذهب إليه في الأغوار وتمسكه؟

وابتسم الأفندي وأشار إلى صدرها وهو يقول:

- ما هذا العقد يا أم سعد؟

كانت الحلية التي تركها سعد لها قد قفزت من تحت ردائها حين دست الصورة في صدرها، وأخذت تهتز فوق ثوبها المبرقش. ذلك كان ما أبقاه لها سعد حين زارها آخر مرة، سلسلة من المعدن، تنتهي برصاصة مدفع رشاش، مثقوبة قرب قاعدتها النحاسية ومفرغة من بارودها. وعاد الأفندي يقول:

- لقد غيرّتن حليكنّ هذه الأيام!

وكانت أم سعد ترمقه بحذر، وبيدها أمسكت الرصاصة المعلقة بالسلسلة، ووجدت نفسها تقول له:

- هذا ليس عقداً.

- ماذا إذن؟

- هذا حجاب..

- حجاب؟

- حجاب!

- حجاب جاء به سعد؟

- نعم. جاء به سعد..

ودار الأفندي في غرفة الصفيح دورة بطيئة، يحدق إلى الأشياء، ويرمق الأفرشة المكومة في الركن، وصحون المعدن التي لم تُغسل بعد، والسقف المعدني الذي بدأ يتوهج بحرارة الصيف، وكومة الوحل على الباب، ثم عاد يقول:

- وكيف قلت إن سعد لم يأت؟

- بلى. أتى وراح..

- ألم أقل لك أن تقولي لنا حين يجيء؟

- خفت.

- خفت عليه؟

- خفت عليك.

وكانت أصابعها متمسكة، لا تزال، بالرصاصة المتدلية من السلسلة على صدرها، وتحت ثوبها أحست بالدفء ينبعث من صورة سعد، وصار الأفندي الآن في جهة الباب، ولكنه توقف عند النافذة الصغيرة المفتوحة في الجدار، ورفع من على رفها الخشبي

حزمة قماش صغيرة مثلثة وملونة ومربوطة إلى خيط سميك، وأخذ يلوح بها بين أصابعه:

- أهذا هو حجابك القديم؟

- هو كذلك.

- ولماذا..

ولكنه لم يكمل، فقد قرأ الجواب، كما يبدو، واضحاً في عينيها وفي أصابعها التي كانت ما تزال تدوّر الرصاصة المربوطة إلى صدرها بسلسلة معدنية، نظر إليها بإمعان وخرج.

قلت لها:

- ولكن يا أم سعد، متى بعث سعد لك تلك الرصاصة؟

- إنه لم يبعثها. تركها في البيت حين زارنا لآخر مرة، وكنت أراها كل يوم في ثنيات الفراش، ثم قررت أن أضعها في صدري، وجاء ابن جارنا ذات يوم فثقبها وأخرج بارودها وربط فيها سلسلة.

- والحجاب القديم؟

- صنعه لي شيخ عتيق منذ كنا في فلسطين، وذات يوم قلت لنفسي، ذلك رجل دجال بلا شك. حجاب؟ إنني أعلقه منذ كان عمري عشر سنين، ظللنا فقراء، وظللنا نهترئ بالشغل، وتشردنا، وعشنا هنا عشرين سنة. حجاب؟ هنالك أناس ينتفعون بالضحك

على لحى الناس! ذلك الصباح قلت لنفسي إذا مع الحجاب هيك، فكيف بدونه؟ أيمكن أن يكون هنالك ما هو أسوأ؟ ثم قلت لنفسي، هذا سعد... أنت تعرف، لماذا تريدني أن أحكي لك كل شئ؟

- ولكنك تسببت في مشكلة لسعد، الآن، إذا ما عاد، فإنهم سيعاقبونه.

(وكان شيء يشبه السخرية في نظرتها تلك، وهي تحدق بي واقفة على عتبة جواب فهمته قبل أن تقوله).

البنادق في المخيم

فجأة تغير كل شئ: كف أبو سعد عن الذهاب للقهوة وصار حديثه لأم سعد أكثر ليونة، بل إنه، ذلك الصباح، سألها إن كانت ما تزال تتعب، وابتسم طويلاً حين رمقته متسائلة عن السبب، فقد كان يأتي دائماً منهكاً، ويطلب طعامه بسؤال فظ، ويكاد ينام وهو يعلك لقمته الأخيرة.

وحين كان يتعطل عن العمل كان يزداد فظاظة، ويأخذ في الذهاب إلى القهوة حيث يشرب شاياً ويلعب الطاولة وينهر على كل الناس، وإذ يعود إلى البيت كان لا يطاق، وكان ينام واضعاً كفيه الكبيرتين الخشنتين، اللتين تملأهما آثار الأسمنت والتراب، تحت رأسه، ويأخذ بالشخير عالياً، وفي الصباح يشاجر خياله، ويترك أم سعد تحضر أشياءها الفقيرة لتمضي إلى شغلها تحت سياط نظرات حانقة لا تفسر، وذات يوم شمّت أم سعد، مع لهاثه، رائحة الخمر.

أما الآن فقد تغير كل شيء فجأة، وصار إذ يسمع خطوات تمر

من أمام شباك كوخه الواطئ، في ذلك الممر الموحل الضيق الذي لا يتسع لمرور أكثر من شخص واحد، يطل برأسه ويشرع بالحديث مع الرجل العابر، موجهاً شتى الأسئلة، متحدثاً عن «الكلاشينكوف» الذي كان يفضل أن يشير إليه بمجرد كلمة «كلاشن»، مثلما يفعل سعد حين كان يزورهم.

لقد ذهب تلك الظهيرة إلى حيث كان مكبر الصوت يعلو بحديث لم يكن يسمع مثله من قبل، ووقف هناك فوق الجدار يرقب، مثلما المصاب بالذهول، أطفال المخيم وبناته ورجاله يقفزون عبر النار ويزحفون تحت الأسلاك ويلوحون بأسلحتهم، وقد شاهد سعيد ابنه الأصغر، يقدم أمام حشود الناس عرضاً عمّا يتعين على المقاتل أن يفعل حين يتعرض لطعنة حربة كي يتجنب الأذى.

وحين نزل سعيد إلى حلقة العرض أخذ الناس يصفقون، ووصلت أم سعد فوقفت إلى جانب زوجها على سطح واطئ وأخذت تطل نحو الساحة، وحين ميّزت سعيد هناك، أطلقت زغرودة طويلة تجاوبت بزغاريد نبعت على طول المكان وعرضه، وقال لها أبو سعد:

- انظري... أترينه؟ إنه سعيد.. أترينه؟ راقبيه جيداً... كأنها لم تكن تراه! وكأنها لم تكن معه، في قلب تلك الحلقة، تحصي حبات

العرق المتدفقة فوق جبهته السمراء الصغيرة!

وأخذ سعيد يتقدم خطوة خطوة نحو خصمه، وهو يشد على قبضتي يديه الصغيرتين وينحني قليلاً، وعندها وضع أبو سعد كفه على كتف زوجته وأخذ يضغط بود غير متوقع، وتدفقت الدموع في عيني أم سعد وهي منصرفة كلياً إلى سعيد.

ودوى تصفيق كالرعد في ساحة المخيم حين تجنب سعيد ضربة الحربة وانتزع البندقية بلمح البصر من بين يدي غريمه الطفل، واستدار ثم رفعها بساعده الصغير عالياً تحت العلم الذي أخذت رفاته تصدر صوتاً كاصطفاق الأكف.

وصفق أبو سعد كثيراً، وكان قد وقف ملء قامته وأخذ ينظر حوله بكبرياء، ثم التقت نظراته بنظرات أم سعد، فعاد ينحني ويقول لها:

- هل رأيته؟ إنه سعيد!

وأشار إلى الطفل وهو يقرب رأسه من رأسها كي ترى جيداً إلى حيث يشير، ومضى يشدد على كلماته:

- هو هناك، ذلك الذي يرفع المرتينة. هل ترينه جيداً؟

وكي لا تضحك انطلقت أم سعد تزغرد مرة أخـرى، وكان التصفيق ما زال يدوي، والطفل يهز البندقية في وجه الرجال

المحتشدين هناك، وتلتمع جبهته مع ضوء الشمس الغاربة، وفجأة التفت رجل عجوز كان يجلس على حافة الجدار إلى أبي سعد، وقال له:

- لو هيك من الأول، ما كان صار لنا شي.

ووافق أبو سعد، مدهوشاً من الدموع التي رآها في عيني جاره العجوز:

- يا ريت من الأول هيك.

وعاد، فأمسك العجوز من كتفه وأشار بذراعه الممدودة إلى وسط الساحة، وقال له:

- ترى ذلك الولد الذي يرفع المرتينة؟ إنه ابني سعيد، أتراه؟

وقال العجوز، دون أن يرى جيداً أغلب الظن:

- الله يخليلك اياه، ولد جدع.

ورفع أبو سعد رأسه قليلاً، ومضى يقول للعجوز:

- وأخوه الكبير سعد مع الفدائيين في الأغوار.

فقال العجوز:

- ما شاء الله.

وشد أبو سعد زوجته نحوه وأشار لها قائلاً للرجل العجوز الذي كان ما يزال ينظر إلى الساحة:

- هذه المرأة تلد الأولاد فيصيروا فدائيين، هي تخلّف وفلسطين تأخذ.

عندها فقط نظر العجوز إلى أم سعد، وكانت تضحك، دون أن تزيح بصرها عن سعيد الذي أعاد البندقية إلى رفيقه وأخذ يعدو ليلتحق بالصف الطويل للأطفال الواقفين بملابسهم الكاكية في طرف الساحة.

وتغير أبو سعد منذ تلك الظهيرة، هكذا قالت لي أم سعد:

- طبعاً، الحالة صارت غير... الزلمة قال لي إنه صار للعيشة طعم الآن، الآن فقط.

وقالت أم سعد:

- عينك عالشباب في المخيم، كل واحد منهم يحمل مرتينة أو رشاشاً، والكاكي في كل بيت، هل رأيتَ أفعال سعد؟

- وما دخل سعد في الأمر؟

- كيف لا؟ هل تعتقد أن ذلك يحدث بالصدفة؟ آه لو تعرف يا ابن العم! البارودة مثل الحصبة، تعدي، وعندنا بالفلح كانوا يقولون إن الحصبة إذا أصابت الولد فهذا يعني أنه بدأ العيش، وأنه صار مضموناً، ومنذ ذلك اليوم الذي شهدت فيه سعد يحمل رشاشاً قلت للأفندي الذي مرّ علي ذلك الصباح «اللي حوّش حوش»! ويوم

الأربعاء كان الأفندي أول من بدأ المشي خارج المخيم، وولع المخيم مثلما يضع الإنسان عود كبريت في كوم تبن، وعينك عالشباب لو رأيت.

- وأبا سعد؟

وضربت أم سعد كفاً بكف، وكدت أسمع في اصطفاقهما صوت قطعتي خشب:

- الفقر يا ابن العم الفقر.. الفقر يجعل الملاك شيطاناً ويجعل الشيطان ملاكاً، ما كان بوسع أبو سعد أن يفعل غير أن يترك خلقه يطلع ويفشه بالناس وبي وبخياله؟ كان أبو سعد مدعوساً، مدعوساً بالفقر، ومدعوساً بالمقاهرة، ومدعوساً بكرت الإعاشة، ومدعوساً تحت سقف الزينكو، ومدعوساً تحت بسطار الدولة.. فماذا كان بوسعه أن يفعل؟ ذهاب سعد رد له شيئاً من روحه وتحسن يومها قليلاً، وحين رأى سعيد تحسن أكثر، أكثر بكثير. رأى المخيم غير شكل، رفع رأسه، صار يشوف. صار يشوفني ويشوف أولاده غير، فهمت؟ لو تراه الآن يمشي مثل الديك، لا يترك بارودة على كتف شاب يمرق من جانبه إلا ويطبطب عليها، كأن بارودته القديمة كانت مسروقة ولاقاها.

وتوقفت قليلاً، تفكر فيما قالت، وكمن تذكر شيئاً قالت فجأة:

- وصباح اليوم صحا باكراً جداً، وحين لحقت به إلى الخارج رأيته واقفاً في الطريق يدخن سيجارته وهو يتكئ على الحائط، وقبل أن يصبِّح علي قال لي:

- والله يا أم سعد عشنا وشفنا.

وفاحت الغرفة برائحة الريف العريق حين أخذت أم سعد صرتها الصغيرة وتوجهت إلى الباب، ولوهلة اعتقدت أنها مضت، إلا إنني سمعت صوتها يعبر من بين المصراعين المفتوحين على وسعهما:

- برعمت الدالية يا ابن العم برعمت!

وخطوت نحو الباب حيث كانت أم سعد مكبة فوق التراب، حيث غرست - منذ زمن بدا لي تلك اللحظة سحيق البعد - تلك العُودة البنية اليابسة التي حملتها إليّ ذات صباح، تنظر إلى رأس أخضر كان يشق التراب بعنفوان له صوت.

سلسلة أعمال غسان كنفاني من منشورات الرمال

روايات

رجال في الشمس

أم سعد

ما تبقى لكم

العاشق/ برقوق نيسان/ الأعمى والاطرش

الشيء الآخر (من قتل ليلى الحايك)

عائد إلى حيفا

قصص قصيرة

موت سرير رقم ١٢

أرض البرتقال الحزين

عالم ليس لنا

عن الرجال والبنادق

القميص المسروق

مسرحيات

الباب

القبعة والنبي

جسر إلى الأبد

دراسات

الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨

أدب المقاومة في فلسطين المحتلة

في الأدب الصهيوني

أم سعد هي «صوت تلك الطبقة الفلسطينية التي دفعت غالياً ثمن الهزيمة. والتي تقف الآن تحت سقف البؤس الواطئ في الصف العالي من المعركة، وتدفع، وتظل تدفع أكثر من الجميع.»



9 789963 610938